

لا تكتفى بأن تصبح لها الزعامة الحربية في البلدان العربية وتُظَلَّ بلوائها كثيراً من هذه البلدان، بل تطلب إلى ذلك الزعامة الأدبية في النثر والشعر جميعاً، ويلبّيها في النثر القاضي الفاضل كاتب صلاح الدين ووزيره ومستشاره، فيستحدث طريقة جديدة في النثر والكتابة، أو قل أسلوباً جديداً ينسخ به أسلوب ابن العميد الذي كان يشيع بين الكتّاب منذ القرن الرابع الهجري، ومن أهم ما يميز هذه الطريقة المصرية الجديدة في النثر طول السجعيات في الرسالة، حتى تحمل ما كان يودعها القاضي الفاضل من التوريات والاقتراسات القرآنية وألوان البديع المختلفة. وشاعت هذه الطريقة في البلدان العربية ورسخت، وأصبحت لها الزعامة الأدبية في فن النثر، أو قل أصبح لها غير قليل من هذه الزعامة.

وحقق لها أيضاً غير قليل من الزعامة في الشعر لعهد صلاح الدين ابن سناء الملك الذي تغنى طويلاً بانتصاراته المدوية الحاسمة على حملة الصليب، مستشعراً - إلى أقصى حد - مجد أمته الحربي في تلك الانتصارات، مفتخراً بوحدة العرب تحت راية صلاح الدين حتى يحقوا الصليبيين محققاً لا يبقى منهم ولا يذر. وقدر لهذا الشاعر المصري البارع أن يدرس فن الموشحات الأندلسية، وهو يقوم في دراسته مقام الخليل بن أحمد في دراسة الشعر العربي، فقد وضع الخليل - كما هو معروف - للشعر العربي أوزانه وعروضه، وبالمثل وضع ابن سناء الملك - لأول مرة - عروض الموشحات الأندلسية وقواعدها المتنوعة، على نحو ما هو معروف عن كتابه «دار الطراز».

وبعد أن أوضح في كتابه تلك القواعد أتبعها بأربعة وثلاثين موشحاً لكبار الوشاحين الأندلسيين ليقرن الأمثلة بالقواعد، ثم تلا ذلك بخمسة وثلاثين موشحاً من نظمه ليدل على مدى تمثله لهذا الفن الأندلسي الجديد وبراعته فيه. وبذلك أعد مصر والشام وغيرها من البلدان العربية، لينهض شعراؤها بفن الموشحات الجديد، إذ عرفهم بعروضه وقواعده وذلك لهم تذكيراً، بحيث أصبح فناً شعرياً للعرب في كل مكان. وعلى نحو ما أشاع القاضي الفاضل أسلوباً